(ISSN: 2959-5436) مجلة جامعة سومر للعلوم الانسانية (SUJHUS)
2024 (حزيران), مجلد 2,عدد 2 ,الصفحات 231-252

النسق الاجتماعي وتجلياته في روايات محمد الحمراني الرباعية

م. د نشأة فائق عبد الحسين[1]*
[1] *المديرية العامة لتربية ميسان , وزارة التربية, العراق*

الملخص

يسعى هذا البحث الكشف عبر الموجهات النقدية والمعرفية عن مفهوم النسق الاجتماعي في روايات محمد الحمراني الرباعية، وإظهار دلالتها النسقية في خطابه الروائي الذي يتضمن في مضمونه ومحمولاته أنساقا اجتماعية متنوعة تُبين أزمة الإنسان العراقي وظروفه القاسية، باعتبار أن الرواية من أكثر الفنون الأدبية التي تتمتع بحرية الحركة والتعبير عن ذات الكاتب ووعيه من جهة، وتعبيرها عن حياة الإنسان وقضاياه العامة من جهة أخرى؛ نتيجة انفتاحها اللانهائي على الواقع وانعكاساته التي تزخر بمتغيرات متنوعة على جميع الأصعدة.

الكلمات المفتاحية: النسق الاجتماعي، محمد الحمراني

The Guadrilogy Novels of Muhammad Al-Hamrani through Critical

Lecturer. Dr. Nashat Faiq Abdul Hussein[1]*
[1]General Directorate of Maysan Education, Iraq

Abstract:

This research aims to uncover the social patterns in the quadrilogy novels of Mohammed Al-Humrani through critical and cognitive approaches, highlighting their systematic significance in his narrative discourse. The novels depict various social patterns reflecting the crisis of the Iraqi individual and their harsh circumstances. The freedom of movement and expression in the novel, as a literary genre, allows the author to convey their awareness and express human life and its general issues. The infinite openness of the novel to reality and its diverse variables across all levels is evident. Key terms: social patterns, Mohammed Al-Humrani.

Keywords: social patterns, Mohammed Al-Humrani.

1. المقدمة

الحمدُ لله على آلائه والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله الطاهرين، وصحبه المنتجبين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبـعْدُ :

تُعدُّ الرواية من أهم الفنون الأدبية الأكثر تعبيراً عن الإبداع المحلي، لارتباطها بمراحل التحول الذي لامس الثقافة والحضارة والمجتمع، فضلاً عن ارتباطها الوثيق بحياة الإنسان، ومظاهر وعيه وقضاياه العامة، إذ حظيت باهتمام كبير وواسع من قبل النقاد والدراسين بما تمتلكه من قدرة في التعبير عن الأنساق الاجتماعية، وإضاءات جوانبها المعتمة، إذ أخذت الراوية في أدبنا العربي الحديث تزاحم الفنون الأدبية الأخرى؛ لمعالجتها كثيراً من القضايا الإنسانية على اختلاف

* Email address: alzbydynshat@gmail.com

معطياتها باعتبار أن الأدب (ظاهرة اجتماعية وأن الأديب لا ينتج أدبا لنفسه، وإنما ينتجه لمجتمعه منذ اللحظة التي يفكر فيها بالكتابة وإلى أن يمارسها وينتهي منها)[1]، وبما أن الأديب ابن بيئته، ومرآة عاكسة للظواهر الاجتماعية وأحداثها، فلا يمكنه التنصل عن مؤثرات وترسبات مجتمعه الذي نشأ فيه؛ لأن المجتمع هو المحرك الفاعل في تأسيس النص الروائي الذي يتحول بعد إنجازه إلى كائن اجتماعي له أبعاده الدلالية التي تعتمد على التحولات والمتغيرات في بعدها الإنساني؛ ومن هنا ربطت الدراسات النقدية الحديثة الأدب بالمجتمع من الناحية الموضوعية وجعلته جزءا لا يتجزأ من بنيتها الاجتماعية والثقافية، ولا سيما في الأعمال الروائية التي تسعى دائما وبوساطة تقنياتها الفنية إلى بناء آفاق جديدة تواكب معطيات العصر بتفاصيله وأنساقه التي تجسد علاقة الأديب القائمة على حزمة من العوامل الاجتماعية المعقدة التي تتصل بالجوانب الفردية للأديب، وبالحياة الجمعية من حيث إرثها التاريخي وواقعها المعاصر[2].

لقد وضعت الرواية العراقية أقدامها على أبواب الحداثة وأسست مشروعها الأدبي عبر قضايا المجتمع التي سيطرت في نزعتها الأيديولوجية على الأدباء الذين رفضوا أنماط الحكم السائد في مجتمعاتهم التي تفاقمت فيه مشاكل الناس، محاولين إيجاد واقع بديل يواجه واقعهم المؤلم المليء بالانكسارات والتراكمات السحيقة، حيث الواقع العربي– عموما- يعيش فصولا من الانحدار والتردي، ولا سيما أن كُتّاب الأعمال الروائية في فترة الثمانينيات والتسعينيات قد تعرضوا كثيرا لضغوطات المجتمع وقوانين الحياة البائسة، فمن المؤكد أن يتأثروا بما يحدث لواقعهم ويجسدونه في عالمهم الروائي الذي أصبح صورة مرئية تُظهر مأساة الحياة الاجتماعية وواقعها الذي تفشت فيه صور المأساة والنفاق الاجتماعي من جهة، فالتالي فانّ كل تشكيلاته داخل هذا الواقع وداخل الزمان والمكان، ومهمة الكاتب هي الخوض في قضايا المجتمع واستكشاف علاقاته المركبة والمتنوعة واحتمالاتها المستجدة التي تؤدي إلى ظهور الجديد المغاير، ولأن الواقع متغير تتصارع فيه قوتان عوامل البقاء والتشبث وعوامل التحرر والتغيير على مستوى القوى الاجتماعية وفوارقها الطبقية[3]. ونتيجة ذلك كشفت نصوصهم الروائية عن إرهاصات الواقع وتفاقم مشاكله الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فضلا عن كشف الأديب لحالة الإقصاء والاستيلاء التي يتعرض لها أبناء جلدته من قبل المتنفذين، وبهذا يكون الأدب صورة وأثراً يُنتجه الواقع الاجتماعي وينقله للمتلقي في تجربة فنية إبداعية متحررة من قيود الواقع الاجتماعي وملابساته.

التمهيد:

أولًا : النسق الاجتماعي وتجلياته:

استطاع الأدب منذ نشأته الأولى تسليط الضوء على القضايا الاجتماعية للإنسان وعلى جوانب مهمة من حياته التي ترتبط بما يعانيه- باختلاف الزمان والمكان- من إحباط وانكسار، وما يرافق ذلك من تراجع يفتت بنية المجتمع ويستحوذ على مقدراته الناتجة من الظروف الاجتماعية وتجلياتها، ومن سيطرة الأنظمة القمعية وبطشها. ومن هنا يتحدد النسق بمفهومه العام من صياغات متقاربة الدلالة، لكنه يأتي ضمن مجالات متنوعة منها اللغة والنقد والثقافة والمجتمع، إذ يتنوع بحسب طبيعة الوظيفة التي يؤديها داخل الخطاب الأدبي، بوصفه بنية أو نظاماً مهميناً في النص.

يتمركز النسق الاجتماعي على محاور واتجاهات ذات دلالات متنوعة وعديدة، تفرزها المتغيرات البيوغرافية للمجتمع، كالدين والأخلاق والثقافة والعادات والتقاليد التي تنظم بدورها أنساقاً وقيماً لها وظائف مرتبطة بسلوك الإنسان وأفعاله، إذ ينعكس تأثيرها بشكل واضح على الواقع وظروفه الاجتماعية التي تمكننا من الوصول إلى الأنساق والانعطافات الهامة التي تخترق بنى المجتمع وتأثر على توجهاته، فلا يمكن أن يكون هناك مجتمع دون ضوابط وقواعد تنظم سلوك الفرد

وتنمي وعيه، حيث إن النسق الاجتماعي هو شبكة من العلاقات الاجتماعية، أي أن الفاعلين داخل النسق يمكن أن يكونوا طبقة اجتماعية أو أمة بمفهومها الواسع أو قد يكونوا جماعة معينة، لذا ارتبط مفهوم النسق الاجتماعي بمجموعة من الأنماط الاجتماعية التي ترتبط مع بعضها ارتباطا بنائيا وظيفيا[4]،وهذا الترابط الوظيفي بين الأنساق الاجتماعية حقق وظيفة داخل النسق العام للبنية الاجتماعية باعتباره وسيلة لفهم الواقع ونسقه الاجتماعي الذي لا يشتمل على الثقافة فحسب، وإنما تتجسد علاقة النسق الثقافي بالنسق الاجتماعي في أن وظيفة الأول تنحصر في تزويد النسق الاجتماعي القدرة على اكتساب الشرعية عبر النسق الثقافي، بينما يستمد النسق الاجتماعي مجموعة من القيم والمعايير التي تساعد على خلق التضامن والولاء والضبط مما يجعلها تساعد النسق الاجتماعي على الثبات النسبي عبر الزمن[5].

قبل التطرق إلى النسق الاجتماعي في روايات محمد الحمراني الرباعية، لا بد من الإشارة إلى الظروف والأحداث والتحولات التي جسدت ملامح المجتمع العراقي من الناحية الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية، إذ فرضت هذه الوقائع نفسها على أعمال ونتاج الروائيين ووجهتهم بشكل واضح نحو إبراز ومعالجة واقع اجتماعي جديد حددته ثقافة الحركة الأدبية في عصرنا الحديث التي ارتبطت ارتباطا مباشرا بالهم الاجتماعي وقضايا الإنسان العامة سواء كانت تلك القضايا إيجابية أم سلبية، فلا غرابة من ارتباط الكاتب بواقعه ما دام يعيش وسط هذا المجتمع الذي يشهد واقعا مترديا يسوده الظلم والاستبداد، لذا جاءت أغلب نتاجات الروائيين العراقيين تمثيلا لواقع اجتماعي وسياسي يقترب من حياة الفرد ويعكسه بصدق وأمانة عبر رؤيته للواقع وما يحمله من متناقضات، لأن الرواية (تعبير عن رؤيا الروائي تجاه الكون والحياة والإنسان) [6].

لا يستطيع النسق الاجتماعي أن يجمع مقوماته ضمن رؤية متكاملة إلا إذا استطعنا دراسة أعمال الأديب بأكملها في نسق تأليفي واحد يجسد ملامح هذا النسق ويستجمعها في إطار فني يميز عصر الكاتب ويكشف عن أهم القضايا التي تشير إلى واقع حقيقي يشخص الجوانب الفكرية والاجتماعية ويحدد تراتبها الطبقي في المجتمع، فلم يخضع النسق الاجتماعي في الرواية العربية كثيرا للبحث النقدي على الرغم من التحولات التي شهدها المجتمع على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي، إذ يحاول الباحث في هذا المضمار دراسة النسق الاجتماعي في روايات محمد الحمراني الرباعية (أنفي يطلق الفراشات و الهروب إلى اليابسة و النائم بجوار الباب و حجاب العروس) وإضاءة جوانبها التي لها صلة وثيقة بسيرته الشخصية وأحداث مجتمعه وقضاياه الحقيقية التي شكلت الخليفة الأساس والمسرح الذي تتحرك على خشبته شخصيات رواياته ومدى قدرتها على تمثيل طبقات المجتمع المختلفة بطريقة فنية رائعة تجسد فترة زمنية محددة ومرحلة مهمة من تاريخ العراق المعاصر.

ثانيًا : التعريف بالروائي ومنجزه:

يتطلب الوقوف على أعمال محمد الحمراني الروائية ودراستها معرفة سيرته والوقوف على أهم محطاتها التي أثرت بشكل مباشر على تشكيل رؤيته وثقافته الفكرية والاجتماعية القريبة من محيطه الخارجي الذي دائما ما يتفاعل معه ويتأثر فيه، إذ يُعد محمد الحمراني من الروائيين الشباب الذي عاصر مخاض تجربة الجيل التسعيني ومعاناته، فهو شاعر وصحفي وروائي وقاص مبدع ولد في محافظة ميسان ناحية السلام 1970م ونشأ وسط عائلة معروفة بالثقافة والعلم، فقد كان شغوفا جدا بقراءة الكتب ومتابعة نشاط المبدعين وأخبارهم، إذ شق طريقه الإبداعي في الساحة الأدبية بكتابته للشعر من تجاويف ناحية السلام في ميسان، ومن تفاصيل الزمن المكتنز بالصعاب في أخاديد الواقع، ليُصدر مجموعتين شعريتين تنتميان إلى قصيدة النثر المجموعة الأولى (خطر) صدرت في بغداد عام 1997م ومجموعته الثانية (عواصف قروية) صدرت عن

دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد عام 2000م، والمجموعتان بشرت بشاعر تسعيني تمظهرت في قصائده معاناة شعبه وابتعد عن قوالب اللغة الجاهزة ومغادرة زخارفها اللفظية، ثم تحول إلى كتابة القصة القصيرة وكتب مجموعة من القصص القصيرة، ومن ثم اتجه إلى كتابة الرواية الحديثة ليضع له موطئ قدم ضمن موجة الرواية العراقية الشابة بعد 2003م، متخذاً من بيئته الريفية بجمال أهوارها وعذوبة مياها منطلقا لكتاباته الأدبية التي خلق منها (واقعاً فنياً موازياً للواقع المعيش)[7].

دخل الحمراني السجن على خلفية مشاركته بانتفاضة 1991م، وبعد خروجه قصد بغداد؛ نتيجة الوضع السياسي المضطرب الذي تشهده مدينته، فضلا عن الوضع الاقتصادي المزري في فترة سنوات الحصار، فقد عمل في أكثر من مكان واستقر في عمله بائعاً للكتب في شارع المتنبي، وبعد ذلك رجع إلى مدينته العمارة وعمل مراسلا لصحيفة (المدى) وسكرتيرا لتحرير صحيفة (صدى ميسان)، فارق الحمراني الحياة في ريعان شبابه عن عمر ناهز عمر الشاعرين بدر شاكر السياب وعبد الأمير جرص أثر فشل رئوي، وعملية جراحية غير ناجحة في احد مستشفيات مدينة البصرة تاركاً خلفه إرثا أدبيا مميزا عالج فيه واقعه الاجتماعي بطريقة واعية متجددة تجمع بين العفوية وتقاليد السرد بأفكارها وأحداثها المدهشة والغريبة[8]. فالملاحظ أن ثمرة كتابات محمد الحمراني الروائية ناتجة عن مخاض عسير تتصارع فيه قوتان قوى الصراع النفسي مع قوى العزيمة والإرادة؛ لأن واقعه الاجتماعي شهد أحداثا وحروبا كثيرة أثرت بشكل واضح على جميع مناحي الحياة منها الحرب العراقية الإيرانية، والحرب مع الكويت الذي أنتج الأخير حصارا جائرا ذاق منه العراقيون مرارة العيش، وكذلك أحداث ما بعد 2003، فكل هذه العوامل بسطت ظلالها على مضمون أعماله الروائية التي أصبحت صورة واضحة ورسالة اجتماعية مغلفة بوعي الكاتب ورؤيته وما يؤمن به من أفكار وايديولوجيات تعبر عن طبيعة المجتمع العراقي وقضاياه التي تبنى وتتشكل من خلال الأساليب الفنية والموضوعية في أعماله الروائية، التي يسعى الحمراني في سياقها توظيف الحياة اليومية للمجتمع العراقي، والتحديات الفردية ليصور عالمه السردي بكامل مكوناته: الأسرة، القيم، المعتقدات، وحتى مجتمع مدينته بأكمله.

المبحث الأول

(الأنساق الاجتماعية وتجلياتها)

اولاً: نسق التنمر:

إنّ ظاهرة التنمر ليست وليدة عصرنا الحاضر، بل لها جذورها وأنساقها الاجتماعية الممتدة من العصر القديم حتى يومنا هذا، إذ لم يعرف العرب قبل الاسلام التنمر بوصفها ظاهرة اجتماعية، لكنهم عرفوا الهجاء والانتقاص من الآخر وإظهار عيوبه بأساليب تقليدية مختلفة ظهرت بوادرها في السخرية والهزل، والتوبيخ، والترهيب والتهديد والسلوك العدواني. فقد ارتكزت هذه الظاهرة حتى في الأوساط الثقافية التي شهدتها العصور الأدبية، إذ نما مثلاً في العصر الأموي ظاهرة (النقائض) بين الشعراء الذي يعمد فيها احدهم إظهار مثالب الآخر والانتقاص منه، وامتد هذا اللون من التنمر وشاع في العصر العباسي وأخذ يسمى بـ (أدب السخرية)؛ نتيجة للتغيرات والمؤثرات الاجتماعية الكبيرة التي شهدها هذا العصر، فكثير من الشخصيات وقع عليها الاضطهاد المجتمعي عبر التنمر واستخدام ألفاظ التهكم والسخرية، حتى وصل إلى عصرنا الحديث بمصطلح مغاير، لكنه يحمل الدلالة نفسها التي حملتها المصطلحات السابقة.

لم تغفل المعاجم العربية ظاهرة التنمر، أذ أوجزتها من الناحية اللغوية في أغلب متونها، كما جاء في لسان العرب ما نصه يقال للرجل السيء الخُلق: قد نمر وتنمر ونمر وجهه أي غيره وعبَّسه، ونمرت نمراً: غضب وساء خُلقه أي صار بلون النمر وصفاته [9]. فالتنمر من أبرز المشاكل الاجتماعية الخطيرة في عصرنا الحديث، إذ بات العالم يعاني من آثارها وخطورتها ومؤثراتها الناتجة من الفوارق الطبقية ومن طبيعة المجتمع وتغيراته واضطراب مناحي الحياة في مختلف مجالاتها الاجتماعية والاقتصادية والنفسية، فقد شهد المجتمع في العقود الاخيرة شيوع ظاهرة التنمر ونموها، بوصفها سلوكاً عدوانياً عند الأشخاص الذين ينحرفون عن قوانين المجتمع ونظامه الإنساني، إذ يُعدُّ المفكر الفرنسي (البير كامو) من أوائل المفكرين الحداثيين الذين لجأوا إلى دراسة ظاهرة التنمر وأشكاله عبر مراحل تاريخية معينة[10]، بوصفه (نمطاً يرفض كل الثقافات السائدة في المجتمع، بل يسعى المتنمرون إلى تبديلها بواحدة جديدة)[11].

يُعدُّ التنمر من الأنساق الاجتماعية التي تضمنتها رواية محمد الحمراني (انفي يطلق الفراشات)، فهي من أقصر رواياته حجما، إذ تقع في ست وثلاثين صفحة، ولدت من رحم المجتمع العراقي ومعاناته المكبوتة، وما يحمله من وجع ومفارقات لواقع مؤلم يشوبه القلق ومشاهد الحرب التي تمظهرت في الحياة اليومية المحاطة بالموت ودوامة العنف، فالروائي كتب روايته وهي أقرب للحكاية في موضوعها وتسلسل أحداثها بدقة متناهية، إذ كشف في بنائها السردي عن النسق الاجتماعي وتقلبات الواقع الذي اختلت فيه موازين القيم الاخلاقية، فضلا عن أحداث تجربته الشخصية وما يكتنفها من تمزق واستبداد وتنمر وانكسار نفسي جراء معاملة أصدقاءه التي تتباين انتماءاتهم الطبقية، إذ يعكس الراوي نسقاً اجتماعياً جديدا تمظهر في ظاهرة التنمر التي تجلت في معاناة الإنسان وبشاعة الواقع وممارسته التي تقوم بعضها على التهكم والسخرية، ومنها قوله:(كان أقرب الأطفال إلى نفسي هبن الذي كان ينتمي إلى عائلة من العبيد يائسة ومُضطهدة أنا وهبن تحملنا مصاعب كبيرة دائما أصدقاؤنا يسخرون منا بشدة ويعتبروننا من الدرجة الثانية، يستفزوننا لأبسط الأشياء.. في احدى المرات قالوا لي: أنفك كبير ولا تقدر أن تصعد النخلة ولكي أثبت لهم بأنني أقدر، ولا أقل قيمة عنهم ؛ أنتقي أطول نخلة وأصعدها، ولأن هبن صديقي الأسود منبوذ مثلي؛ قالوا له: هل بإمكانك تصل إلى نهاية السوق بعشرة دقائق؟ فانطلق باتجاه السوق يلتهم الأرض من أجل أن يصل قبل الموعد المحدد)[12].

يمكن أن نلاحظ في نص الحمراني آنف الذكر معاناته وقلقه النفسي الناتج من شدة الانحدار الاجتماعي، والاقصاء والفوارق الطبقية التي كانت تحكم مجتمعه وتظهر إلى حدٍ بعيد واقعه المتردي، إذ جاء الصراع في هذه الرواية مزامنا لحدثها، فالراوي وصديقه هبن والأطفال الآخرون هما طرفا ذلك الصراع الذي نشب بينهم عبر المحاولات الاستفزازية والتنمر وهم يعيبون عليه كبر أنفه، ويسخرون بشدة من صديقه الأسود، إذ يحاول الراوي تعويض ذلك النقص والفارق بينه وبين اقرانه بالتحدي، فهو وسيلة لثبات الذات في واقعٍ تحول فيه الإنسان لكائنات مستعبدة، لكن التحدي جرّاء التنمر عادة ما يكون سلبيا لا يجني منه الفرد غير الخسارة والضياع، على الرغم من أنه صراع مع رغبات الآخرين المتعالية، هكذا يبدو تحدي هبن صديق الراوي (في احد الأيام قالوا لهبن: هل بإمكانك أن تعبر النهر من الجانب الجنوبي؟ وبدأوا يستفزونه: انك تخاف من جميل .. أنت جبان ؛ لم تعبر النهر .. هكذا هم العبيد دائما.. خلع ثيابه وعبر النهر باتجاه بساتين جميل، ولأن النهر يشبه قنبلة؛ كنا ننظر اليه حذرين.. بعد ذلك بدأ راس هبن يرتفع الى الاعلى ويصطدم بالماء. كنت الوحيد الذي يعلم بانه مصاب بمرض الصرع اشرت اليه بان يرجع... بعد ذلك اختفى على سطح الماء تفرق الاطفال مندهشين وارتفع صراخ امه بمحاذاة النهر)[13].

يسترجع الراوي ذكريات طفولته وما تحمله من جراحات والم كبير وهو يستذكر حادثة غرق صديقه في النهر المحاذي لبستان جميل تلك الشخصية الواقعية التي تحمل في اسمها مفارقة واضحة، على الرغم من ضخامة جسمه وطوله المخيف،

إذ يبوح لنا هذا النص بمكنونه وبمثيراته الحسية عن الممارسات اللاإنسانية التي تتجلى ببعض مفردات التنمر(أنت تخاف، أنت جبان، هكذا هم العبيد) فهذه الأساليب العدوانية التي غُيبت صديق الراوي جعلته يعيش ضجرا واغترابا نفسيا افقده الامل في العيش وسط مجتمع اختلت فيه القيم الانسانية وغابت عنه روح التعايش السلمي وصعوبة ممارسة الحياة اليومية بحرية؛ نتيجة الشعور بالنقص والتوتر الحاد الذي رافقه وهو يعاني اضطهادا اجتماعيا حادا، وهذا ما تجلى في قوله:(هكذا كانوا يستفزوننا من اجل لا تنمو الازهار على اظافرنا.. يتهجمون على انسانيتنا بلا براءة ويشعلون جذور النيران على اشكالنا التي لم تكن لنا اختيارات بها)[14]، لا شك ان الاحساس بالدونية والتهميش هما من جعلا الراوي لا ينخرط في النسق العام للمجتمع، لكنه لم يكن بعيدا عن كشف ملابسات الواقع وتعريته واستيعاب جميع أنساقه الاجتماعية المرتبطة من حيث السياق مع انساق أخرى تتمظهر في خطابه عبر المفردات (يستفزوننا، يتهجمون على إنسانيتنا، يشعلون جذور النيران على أشكالنا) وكيفية صياغتها ضمن إطار فني يحدد رؤيته الناضجة التي استمدت خصوصيتها من الواقع وما تحكمه من فوارق طبقية تمثلت في هذا النص بقوله: (الكثيرون لا يعترفون بصداقتي ولا يحترمون آرائي ولا يعيرون أي اهتمام لتواجدي، ما يشغلهم هو أن يشتموني لأبسط الأسباب، وبطرق مبتكرة)[15].

لا يكشف هذا النص عن إقصائية واضحة فحسب، بل يحيلنا إلى نسق عجيب جذّرت له الظروف الاجتماعية القاهرة في العراق، لا سيما في عصرٍ لم يكن للمثقف فيه أي دور أو ثمة وجود في المجتمع، هذا النسق الذي لا يحيا إلا بالاتكاء على النسق الآخر الشعبوي، إذ يظهر ذلك بوضوح عن غياب نخبوي وتغييب قسري للمثقف للتعاطي مع القضايا الوطنية والسياسية الكبرى، ولولا أن هناك حضوراً لهذا النسق لما صار تغييب دور المثقف وتحجيمه، ومصادرة رأيه، وشتمه لأتفه الأسباب ظاهرة في المجتمع الذي يعاني من العنف والتنمر بطرقه المختلفة، وعلى هذا الأساس يأتي حضور الأنساق والاتجاهات الاجتماعية في الرواية استجابة لتخلف بعض مكونات المجتمع العراقي في مرحلة ما[16].

لم تخلُ رواية الحمراني (حجاب العروس) من نسق التنمر على الرغم من أن الراوي افتتح سرد أحداثها بحلم أو كابوس قدم بوساطته عوالم خيالية ليبطن فيها عالمه الواقعي وسبر أغواره بطريقة رمزية تجمع أحداثاً تاريخية من الماضي البعيد والقريب في الوقت نفسه، وهذا لم يأتِ اعتباطاً، وإنما يدل على الأحداث المتشابهة وتقاربها من الناحية الموضوعية والزمنية، إذ تكشف ثيمة هذه الرواية عن أحداث العراق ومعاناته وصراعاته الطبقية، وعن بعض المعتقدات والخرافات وسيطرتها على حركة الفعل الأنساني، وما ينتابه من قلق وظلم وتعسف ومشاهد مأساوية امتدت من فترة احتلال العثمانيين للعراق إلى ما بعد أحداث 2003م، فهذا التأطير الزمني الذي غلب عليه الطابع التاريخي سيطر على المتخيل السردي، لكنه لم يؤثر على بنية النص الروائي وجماليته الفنية، بيد ان(النص الناجح هو الذي يوظف هذه الموضوعية التاريخية على اساس أنها خلفية للأحداث، تعطي للحدث طعمه وموضوعيته)[17].

تحيلنا هذه الرواية الى احداث حية ولدت من زمنين زمن ماضٍ بحوادثه وحكاياته، وزمن ولد من قسوة الحياة وعنفوانها، وهذا الأخير يصارع فيه الإنسان بصعوبة مشاكل الواقع الذي انتزعته من حنان الأمومة ودفئها، ليجد نفسه في بيئة يسودها عادات وتقاليد وحكايات خرافية بالية لا تمت لواقع الإنسان أو الحياة الطبيعية بصلة، لكن يقظة الوعي الايديولوجي عند الحمراني مكنه من تعرية الواقع وعاداته السلبية والتعريف بقضاياه وهمومه وآماله، وهذا لا يعني أن الرواية افتقدت الى الوعي الجمالي، وإنما جسدته بعمق الدلالة، وجمال العبارة، فضلا عن تركيبها اللغوي الذي اقترب كثيرا من لغة قصيدة النثر، بوصفها وعاءً يحمل فكراً وقيماً إنسانية كبرى استنبطت من الواقع وتأثرت بمعطياته وأنساقه الاجتماعية التي تُعد ثمرة نتاج الروائي، باعتبار ان عالم الرواية (عالم لغوي، فباللغة نتحسس عمق الواقع ومأساة الإنسان فيه، وباللغة نتحسس رؤية الكاتب ولهاثته وراء المغزى المفقود في الحياة)[18]، لقد أعطى الراوي العليم بحضوره الفاعل والمهيمن على سرد

الأحداث والتحكم بحركتها نوعا من الغنى والامتاع والإثارة، إذ دائما ما نجده يسند إليه فعل السرد (الأنا)، ليعبر عن واقعية أعماله بمصداقية عالية تجعل المتلقي يتفاعل مع الحدث ويتأثر به، لذلك عبر الحمراني بفنية مميزة عن نسق التنمر السائد في مجتمعه الريفي البسيط الذي اختلت فيه بعض القيم والموازين المرتبطة بالوعي الإنساني والاخلاقي؛ نتيجة الهزائم والانكسارات التي لازمته فترة زمنية ليست بقصيرة، فضلا عن بعض المعتقدات البائسة التي انعكست بشكل واضح على مسار المجتمع وتوجهاته، ومن ضمنها ظاهرة التنمر التي أصبحت نسقا متفشيا في المجتمعات التي تعاني من تلك الترسبات، إذ ترد بعض المفردات المتداولة بين أواسط المجتمع التي تشير من حيث مدلولها الى التنمر، لا سيما اذا كانت هذه المفردات تُطلق جزافاً على الآخرين، كما يظهر ذلك في تمثيل الروائي النصي(كان أصدقائي في القرية يسمونني الكذاب، لأنني دائما أروي لهم حكايات خيالية، ولأن الحكايات مخيفة كانوا يتركونني وينهزمون ثم يصيحون: أنت كذاب)[19].

ينشأ هذا النوع من التنمر من مخاض التخلف والسلبية والمعاناة، وما ينتج عنها من نعوت مسيئة أطلقها أصدقاء الراوي عليه من أجل النكاية به وتجريحه والانتقاص من حكاياته التي يسردها لهم وتكذيبها؛ لأنها مليئة بمشاهد الخوف والموت والقلق. وعلى وفق ذلك حاول الروائي أن يؤسس لمشروعه نسقا اجتماعيا عن طريق تجربته الذاتية التي كشفت عن معاناته المرة، وعن موقفه اتجاه قضايا مجتمعه الذي عاش همه، وعاين واقعه، واعتبره الكفيل في اظهار ايقاع العصر واحداثه التي تتأرجح دلالاتها على انساق متعددة منها التهميش وعدم الاكتراث لآراء الآخرين والتنمر عليهم بأشكال مختلفة، لأن أي كاتب أو أديب لا يستطيع أن ينتج عملا دون الرجوع إلى أنساق المجتمع وقضاياه حتى لو كان المجتمع الذي يحيا فيه مليئاً بالأحداث والتطورات الساخنة على جميع الاصعدة.

ثانياً: العادات والمعتقدات الشعبية:

لا يمكن الكشف عن اي نسق داخل ضمن سياق المجتمع دون معرفة القضايا التي يدور في فلكها ذلك النسق ومدى تأثيره وفاعليته على الممارسات الاجتماعية والثقافية والسياسية الخاصة بالمجتمع، لا سيما إذا كان ذلك المجتمع محلي تربطه علاقات عاطفية وعادات وتقاليد عرفية تتجلى بالمعايير والضوابط التي تحدد سلوك الإنسان داخل البنية الاجتماعية المحكومة بالمعتقدات الشعبية وحكاياتها الخرافية التي أخذت تسيطر على عقولهم وخيالهم وتكوينهم النفسي وتمنعهم من الانفتاح على عالم جديد يختلف عن عالمهم الذي جلب لهم البؤس والحرمان؛ نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية، فضلا عن ضعف الوعي والخضوع لتلك المعتقدات المرتبطة بالماضي، التي دائما ما تسير في خط رتيب سكوني لم تحقق لهذه الفئات البسيطة مكانتها الاجتماعية التي ترغب في تحقيقها، لكن هذه الانساق تبقى (من القضايا التي تفرض على المثقف العربي تحديات معرفية وجمالية تحدد موقعها في ثقافة المجتمع الذي يحدد انتماءه وعلاقته بالأخر)[20].

كشف محمد الحمراني في روايته (الهروب الى اليابسة) عن أنساق شعبية وحكايات موروثة ضمن فلسفة واقعية ومغايرة في الوقت نفسه، يبدأ رمز الهروب والجزع فيها من عتبة العنوان الذي يوازي حوادثها وملامح نسقها الاجتماعي، إذ تأخذ هذه الرواية طابع الحكاية- اي تعتمد على الحكي الاستعادي- في سردها للأحداث بنزعة تغريبية لمحنة الذات الجزعة، وتداعيات تُشير إلى أجواء غريبة، تجعل القارئ منذ البداية يعيش نوعا من التناقض والوهم الذهني وهو يتساءل لماذا الهروب من الماء إلى اليابسة؟ وهل أصبحت اليابسة فيما بعد الملاذ الآمن في تحقيق رغبات الكاتب والعيش فيها بحرية وكرامة؟ إذ تجيب الرواية عن هذه التساؤلات عبر مشهد بانورامي واقعي محكوم بدلالات الذاكرة التي تنم عن سيرة الروائي وتكوينه الثقافي، وتركيبته الأسرية التي تنحدر من طبقة ريفية، حيث النبع الذي يستقي منه تصوراته وقيمه

وموازينه، ليُقنع المتلقي بأن أحداث الرواية بشخصياتها وزمكانيتها تتصل بشكل مباشر بتجاربه وواقعه الاجتماعي الذي راح ضحية نفوذ السلطة وممارساتها القمعية من ضمنها تجفيف الأهوار وتهجير أغلب سكان القرى منها بعدما انتشرت على امتداد مستنقعات تلك الاهوار نفوق الحيوانات وهاجرت طيورها البرية، فقد كانت هذه الرواية ترجمانا صادقا للواقع الاجتماعي وازماته، إذ زاوج فيها الروائي بين الرؤية الذاتية والموضوعية بين الحقيقة والخيال، وهذا التزاوج احدث مفارقة اتسمت بالبساطة عبر استخدام الكلام المباشر، والغموض باستخدام الرموز والايحاءات المتنامية التي تعمق المضمون، وهذا المفارقة اثارت دهشة المتلقي وفعلت فطنته، وجعلته يتمسك بواقعية الحدث ويستخلص صوره واهدافه العامة المحكومة في بنية فنية واحدة (تحدد العلاقة بين رؤية الاديب لعالمه، وبين العمل الادبي وشكله)[21].

وظف الحمراني في رواياته عادات وتقاليد ومعتقدات شعبية سائدة ومتوارثة في مجتمعه الذي يحمل ارثاً متأصلا لا بد من الاشارة اليه عن طريق سرده الاخباري المتمثل في هذا النص(هذه المدينة ومنذ اعوام طويلة قد عانت من جراح كبير ادت باهلها الى القتل والسجن والهرب- الملكة هيفاء- مثلاً – كانت تسكن في الجانب الجنوبي، ولكن طغيان المملكة جعل الاباء يرتكبون المحارم مع فتياتهم الصغيرات فغضب الرب عليهم وجعل المملكة جبلا من الرمل. هذه الحكاية كانت تنبئ بان المدينة منجما للكوارث)[22]، نستجلي في هذا النص النسقي قدرة الحمراني ونجاحه في اظهار المستوى الفكري والميثولوجي، واحداث نقلة من واقعه الى واقع مرجعي، استحضر فيه معلوماته الثقافية المخزونة في ذاكرته عندما وظف (الملكة هيفاء) بوصفها مرجعية تاريخية ربط من خلالها معاناة مدينته (السلام) بالكوارث والنكبات التي كانت تتعرض لها تلك المملكة آنذاك، واعادها ضمن فلسفة جديدة تفسر الحياة ومواقفها الناتجة من هيمنة الفعل الاجتماعي وترسباته، فلابد(للروائيين من تجسيد الاحساس بالزمن، لا الزمن نفسه)[23].

وفي إطار آخر نلحظ أن الحمراني قد نهل من بيئته الريفية معتقدات وعادات عديدة ومتنوعة انبثق جزء منها من الحكايات الشعبية وصورها الخرافية التي ادخلها الروائي في أجواء السرد، ليبرهن عن واقع متردي يسوده التخلف والاعتقاد بعادات خرافية وهمية يعتقد الكثير بصحتها وقدسيتها، لأنها كانت تروى لنا على السن اسلافنا السابقة، حيث نجدُ حضور هذا النسق ماثلا بقول الراوي (قالت لي أمي قبل أن أنام: لا تجتمع بأصدقاء السوء... صديقك أكله (عبد الشط) ولو وضعت أصبعك بالماء سيلتهمك)[24]، لا يختلف التمثيل النصي عن غيره من النصوص الاخرى في روايات الحمراني التي تمثل نموذجاً كاشفاً عن مفاهيم مرتبطة بأنساق المجتمع وعاداته ومعتقداته التي تحيل إلى مرجعيات لها جذورها وإرثها التاريخي المتأصل في منظومة القيم الثقافية للمجتمع، إذ لا يستطيع الانسان المثقف كسر محدداتها بسهولة، كونها تحمل طابعاً قصصياً له رسوخه الثابت في ذاكرة اغلب المجتمعات الريفية أو المجتمع الذي يعاني من تدني في مستواه الثقافي وما ينطوي عليه من تناقضات اجتماعية تضيق افاق تفكيره، وتأثر على سلوكه العام.

وفي ظل ذلك الفهم لا يقف الحمراني بعيداً عن الواقع وملامح الحياة وأنساقها، إذ دائما ما يلتقط موضوعاته الروائية من بيئته، ليجسد بوساطتها الثبات الوجودي لهموم الإنسان ومعاناته، فهي الجانب المعبر عن حقيقة الذات والواقع الذي شكل عالما مضطرباً، يسعى الوصول إليه باي وسيلة كانت، إذ يُسقط بعض الاعتبارات الفنية أمام تحقيق أهدافه لمصلحة هذا الفن حتى يصبح وسيلة نفعية (فالانفتاح اللانهائي على الواقع هو الذي يجعل الرواية تتمتع بحرية الحركة والتعبير اكثر من أي جنس أدبي آخر)[25]، وعلى هذا الأساس عُدَّ النسق الاجتماعي المرتبط بصراعات المجتمع ومعاناته من أبرز سمات نتاج الحمراني الروائي، بوصفه رسالة اجتماعية مغلفة بوعي الكاتب وما يؤمن به من أفكار وايديولوجيات تعبر عن طبيعة الحياة، وتصور حقائقه الواقعية، وعاداته ومعتقداته الشعبية التي تبنى عن طريق حركة السرد ومفارقاتها، وهذا ما يمكن أن نجده واضحا في حديثه (أنَّ المطحنة التي تتوسط المدينة وتحاذي الجهة اليسرى من النهر بنيت على أنقاض، يقال

إنها بقايا قرية قديمة، حتى ان الحاج حسون تاجر الحبوب، قيل إنه يحفر فيها وعثر ذات مرة على عظم غليظ كانت تحيطه سلسلة ذهبية، وبعد مرور ليلتين أشيع بين أهالي مدينة الطويل بأن ثمة عظاما كثيرة تتجول بعد منتصف الليل، وهذا ما دعا أغلب رجال المدينة إلى إقناع الحاج حسون بإعادة السلسلة إلى مكانها والتوقف عن نبش الأرض المجاورة للمطحنة)[26].

ثمة جزئية أخرى لها نوع من الأهمية يكشف عنها هذا النسق المتمثل بالمعتقدات وحكاياتها الشعبية في مدينة (الطويل)، هذه المدينة التي تسمى حاليا بـ(ناحية السلام)، حيث تُعد البؤرة الأساس لمنطلق أحداث رواية (الهروب إلى اليابسة)، التي اكتسبت صفتها الواقعية عبر اماكنها وشخصياتها الاجتماعية التي تميزت بسمات الواقع وعاداته ومعتقداته التي تُأصل قيما انسانية اجتماعية تصور فلسفة الحياة وطبيعتها، عبر صور ذهنية تجسدها هوية المكان الذي (يُساهم في خلق المعنى داخل الرواية)[27]، فالنص آنف الذكر زخر بمعتقدات وحكايات تقترب كثيراً من حكايات الأساطير والخرافات، لكن طبيعة مجتمع مدينة (الطويل) وإيمانه المطلق بالخرافات والاعتقاد بها أجبرت الحاج حسون بالكف عن نبش الأرض واسترجاع ما استخرجه منها حتى لا تتجول تلك الكائنات ليلاً في المدينة وتُرعب أبنائهم، وعلى هذا الأساس تحدد طبيعة النسق الاجتماعي في مضمون النص عبر التأطير الزمني بمرجعياته وأحداثه المعاصرة، وما تحمله من إشارات تاريخية ذات مرجعية واقعية تُقدم ضمن بنية روائية تأخذ طابعها وعلاقتها الجدلية من المتخيل والواقعي، وضمن هذه العلاقة ينبني النص وينتج دلالته الفكرية والفنية معاً[28].

وقد لاحظنا أيضا هناك تمثيلا نصيا في رواية (حجاب العروس) لبعض المعتقدات الشعبية وحكاياتها الخرافية التي يعتقد سكان القرى الريفية بصحتها وقدسيتها، وتنفيذها لزاما عليهم ، على الرغم من أنها معتقدات لا يتقبلها العقل والمنطق معا، ويبدو أن هذا النسق قد وجد امتدادا واضحا في التشكيل الأدائي الذي تبلور في حديث الحمراني النصي (في احدى غرف القصر الكبير سمعت جنزيل يقول لأمي: كل من ينذر لي نذرا، ولا يفي بنذره يتسلط عليه غضب السماء، ثم سمعته يقول لها: لقد قرأت في اذن ولدك ادعية جعلت منه صابئيا، فزرعت النجوم قوتها في دمه، وساعدتني الارواح الصالحة على اعادة روحه.. لقد زرعت في هذا الولد سبعة ارواح، ولكنها ارواح هشة، وبحاجة لمن يرعاها، واعتقد بأني جدير بذلك وان مصير هذا الولد الموت لو ابتعد عني)[29]، ربط الراوي في هذا النص نسقاً دينياً يتعلق بتفكير مجتمعه البسيط واعتقاده بفعالية المعتقد الناتج من الممارسات الخاطئة لوظيفة الدين التي يفرضها بعض المتطرفين عقائديا واقحامها في المجتمع من اجل تقوية نفوذهم ومنحهم شرعية لأفكارهم الواهمة التي لا تمت للدين بصلة؛ لأن جميع الديانات بشرت بثورة ضد الظلم والاستغلال وفرض هيمنة الأفكار الرجعية على الآخر. وفي هذا النص أراد الروائي عبر ثقافته ونظرته العامة لقضايا المجتمع أن يُظهر المستوى الثقافي والفكري والديني الذي كان يعيشه مجتمعه آنذاك وما اعتقاد (أمه) بقضية النذر والخوف من عدم الإيفاء به إلا مظهر من مظاهر التخلف، فضلا عن كشفه زيف شخصية جنزيل كبير طائفة الصابئة الذي دائما ما يحاول إيهام الناس الذين يعيشون في تلك القرى بحكاياته الخرافية، وقدراته الخارقة لطبيعة الانسان وتكوينه، إذ مثلت هذه الشخصية تهديدا حقيقيا لحرية الإنسان وقيمه الاجتماعية، وجعلته يلتزم بعادات وأعراف ومعتقدات (بحيث يُعدُّ من يتعداها خارجاً عن عرف الجماعة، بل أنه يكون أشبه بمن يتعدى على الشيء المحرم)[30].

ثالثاً: نسق الفقر:

الفقر من الأنساق الاجتماعية التي برزت بوضوح في أعمال محمد الحمراني الروائية، إذ جسد الكاتب هذا النسق بأحداث رواياته لما لها صلة وثيقة بالواقع الاجتماعي وشخصياته التي تعيش حالة من الفقر والعوز والمعاناة، باعتبار أن الفقر من أكثر المشاكل وأكبرها تفاقماً في المجتمع؛ بسبب مردودها السلبي على الواقع من جميع النواحي، إذ صور الحمراني بدقة

قريته التي خيم عليها طابع الفقر، وما آلت ظروف مجتمعه القاسية من غيابٍ للعدالة، وانعدام ضمائر الحكام الذين تسببوا في تجويع الناس وجعلهم يلجؤون الى كسر نمط الحياة السائد في مجتمعهم، فليس امامهم سوى هذا الجحيم الذي مثله الروائي في قوله:(نحن الآن نعيش حرباً فيما بيننا، لقد رحلت عاطفتنا ومات احساسنا بالوجود؛ نبحث فقط عن الطعام، الحصار من جميع الجهات والرصاص يخرج من أصابعنا على أبنائنا... أخبار عن مشاكسات عائلية نسمعها يومياً: عباس حسونة ضرب أبيه بشيش عندما أكل الأرغفة في غرفة بعيدة عن الأنظار، الرجل الآن يعاني من شلل وأمراض عصبية. الجوع اقتحم عوائلنا ورسم عناكب كبيرة على اسرتنا)[31]، أخذ هذا النص منحاً توثيقياً لسلطة التجويع التي فرضت على مجتمع الروائي بصورة خاصة، والمجتمع العراقي بصورة عامة، إذ حاول الراوي ايجاد الاطار الاجتماعي والنفسي بطريقة قد تبدو ضاربة أعماقها في هذا التمثيل لنسق الفقر، بوصفه واحداً من أهم الأمراض التي تُسهم في انهيار المجتمع، وتجعله يعيش حرباً دائمة مع نفسه المحاصرة بآفة الفقر، والبؤس الذي أمات عواطف الناس واحساسهم بالوجود، فأي نسقٍ يتوارى خلف ما أشار إليه الروائي أعلاه بقوله: الرصاص يخرج من أصابعنا على أبنائنا، الجوع اقتحم عوائلنا، هل هو نسق السلطة المهيمن المتكئ على سلطة القتل والتجويع؟، بل يذهب بنا هذا النسق إلى أن القاتل هو الشعب ذاته، أي أبناء المجتمع هم من يقتلوا بعضهم بعضا؛ نتيجة المأساة والاضطرابات والتمزق الذي التصق بالمجتمع في حقبة زمنية ليست بقصيرة.

ومن المشاهد التوثيقية الواقعية أيضا التي لا تختلف كثيراً عمّا رسمها لنا الروائي عن آفة الفقر في ظل واقع تخلى فيه الكثير عن قيمه ومثله العليا، وعن ثوابت المجتمع واخلاقه، وهذا ما نلاحظه في نصه (فتيات صغيرات في السابعة والثامنة عشرة من العمر يعملن مع رجال الى ساعات متأخرة من الليل، عندما يعدن الى بيوتهن يصرخ أباؤهن: أين الأجور؟ أين الأجور؟ الحصار يتسلل حتى الى أفخاذنا، أشياء كثيرة خسرناها وفي طريقنا الى خسائر كبيرة. بيوتنا بلا غرف نوم، وثيابنا قديمة تهديها لنا عوائل برجوازية بعد موت اصحابها)[32].

يحمل نص الحمراني رؤية ناقدة وكسر للنسق الاجتماعي والأخلاقي السائد في مجتمعه الذي سلبت منه الحاجة كرامة الإنسان وشرفه، وجعلته يتخلى عن ثوابته الاجتماعية؛ ليجعل فتيات قاصرات يعملن في أوقات متأخرة من الليل؛ نتيجة تحملهن أعباء المسؤولية الأسرية وقسوة الحياة وعنفوانها، على الرغم من سلطة الرجل التي يؤمن بها الجميع في مجتمعاتنا، حيث تخلى عنها نتيجة العوز، وقد أوحى الروائي إلى ذلك بإشاراته الضمنية أين الأجور، الحصار تسلل إلى أفخاذنا، أشياء كثيرة خسرناها، وبأسلوب واقعي تمظهر بشكل واضح في نصوصه التي تجلّت في مأساة مجتمعه وظروفه القاسية، إذ بنى بوساطتها مواقفه وتصوراته وتوجهاته، لأن الأديب دائما ما(يتأثر بالحياة الخارجية السائدة في بيئته، والقائمة في مجتمعه، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع)[33].

ومن زاوية أخرى استوعب الحمراني المشاكل الاجتماعية الراهنة، وصوّر حالة الفقر المرعبة التي انتهكت كرامة الانسان ومقدراته، وجعلته يعاني شظف العيش، إذ نقل لنا الروائي ظروف المعيشة القاسية وصراع الإنسان مع الحياة ضمن تشكيل نسقي تجلّت فيه قدرته الكبيرة التي لم تكتفِ باستيعاب معاناة مدينته فحسب، بل نقلنا عبر هذا النسق إلى مركز العاصمة التي لم تسلم هي الاخرى من استفحال ظاهرة الجوع والعوز، إذ يقول:(كان فقراء بغداد يأتون إلى شوارع الدورة لشراء العتيق وبيع السمك في عربات متجولة وكذلك لرعي قطعان من الأغنام في المزابل الكبيرة أو النبش في تلال المزابل لعلهم يعثرون على قطع من الذهب أو حاجات ثمينة سقطت سهوا من اصحابها)[34]، يحكي الراوي في هذا النص جانبا اجتماعياً تجلى في ظاهر التغيب القصدي لاستحقاق الانسان الذي يعاني الظلم والحرمان؛ نتيجة الظروف الاجتماعية القاهرة وما خلفته الحروب من حصار اقتصادي جائر فرض ارادته بقوة على الشعب العراقي عامة، لكن اثاره تمظهرت

بشكل واضح على فئة كبيرة منه، لا سيما على بعض اهالي مدينة بغداد الذي نهش جسدهم الفقر والجوع، للدرجة التي صاروا يبحثون عن قوتهم اليومي في مخلفات القمامة ومزابل الاثرياء لعلهم يجدون فيها ضالتهم. ويبدو ان استعراض الحمراني لمثل هكذا انساق في رواياته، دليل على رفضه لهذا الواقع ذات الانغام المتناقضة والمتباعدة عن جوهر الانسان وطبيعته الاجتماعية، فلا شك أن ارتباط اكثر الروايات العربية (بالالتفات نحو الواقع والعكوف عليه وهو التفات فرضته التحديات الحضارية والحركة والسياسية والتطورات الايديولوجية)[35].

جاءت الأنساق الاجتماعية ومضامينها الإنسانية في روايات الحمراني متداخلة بعضها ببعض، إذ عبرت عن رؤيته وركزت على جوانب عديدة من حياة المجتمع العراقي، إذ تجلى جزءٌ منها في صور الفقر والاحباط والتفاوت الطبقي، لا سيما في المناطق الجنوبية التي تعيش الجوع والحرمان على الرغم من خيراتها الكثيرة، وما تنعم به من ثروات حيوانية وسمكية ونباتية، فضلا عن الثروة النفطية التي تطفو حتى على سطح تربتها، لكن سياسة الاستيلاء التي تمارسها السلطة ومنتفعيها انتجت ظلماً اجتماعياً قاهراً كشفته حيثيات ظاهرة الفقر والجوع وانتشار الامراض والأوبئة، وهذا ما يراه الروائي (عدتُ إلى مدينتي الصغيرة، التي تصدر يومياً (259) الف برميل من النفط الخام وسكانها جياعٌ، رجعت لأكتب حكاية عنها، حكاية عن الاحتلال الأول والذي لا يختلف كثيراً عن الاحتلال الحالي وكأن الأزمنة تتناسخ، سرقة للنفط، مشاريع مزيفة، انتشار الأمراض قتل للزراعة)[36].

لقد كان الواقع الفوتوغرافي لمدينة (العمارة) بأهوارها وشخصياتها وأمكنتها ومشاهدها اليومية الحية جزءا لا يتجزأ من كتابات الحمراني التي تؤرخ لواقع وحقبة زمنية من تاريخ العراق المعاصر وعلاقاته الاجتماعية المتشابكة التي انتجت واقعا سحريا عكس على سرده الواقعية والفنتازيا، وهذه كلها شكلت رؤيته وعالمه الواقعي الذي منح مدوناته منافذ جديدة أراد أن يخلق منها توليفة فنية تصور الواقع الاجتماعي تصويرا دقيقا، وتنقله إلى المتلقي بوعي وحرفية عالية مراعيا الجوانب الفنية والشكلية للرواية.

المبحث الثاني

النسق السياسي وآثاره الاجتماعية

يُعدُّ النسق السياسي من الأنساق التي ظهرت بشكل واضح في أعمال الروائيين العرب، لاستيعابها كثيراً من القضايا والرؤى والأزمات الحاضرة في أغلب نتاجاتهم، فالأنساق السياسية من المحاور الفكرية التي لا يمكن تجاهلها في بناء أي عمل سردي يتناول قضايا المجتمع وافرازات الواقع الذي ينطوي على أنساق اجتماعية وثقافية واقتصادية، تركت أثرها عبر الأحداث والشخصيات والتحولات وما طرأ على المجتمع من ظروف سياسية كبرى تعرضت لها الأمة، منها الحروب، وما تنتجه من معاناة وحرمان واستلاب للحرية، وهذه كلها تجلّت بالانفعال العاطفي، والهم القومي والوطني عند الفرد، ليصبح الأديب هو المؤرخ الحقيقي لهذه الأحداث السياسية الواقعية التي تعبر عن مأساة الشعوب ومشاكلها الناشئة من ممارسات السلطة وتعاملها الهمجي، فقد جاءت الرواية العربية لتوثق(القهر السياسي والإرهاب الفكري والتعذيب المادي والمعنوي، وتنطلق من هذا الرفض المصوّر لازمة الحرية إلى المناداة بالحرية والتطلع إلى تجاوز هذا الواقع المدان إلى مستقبل أفضل)[37].

يكشف النسق الاجتماعي عبر تناوله موضوعات المجتمع وحياته اليومية عن العلاقة الجدلية بين المجتمع والسلطة، ومدى تأثير الأخير على الممارسات الاجتماعية وفاعليتها في البنى النصية داخل الخطاب السردي الذي يصور لنا مجموعة من الأنساق من ضمنها:

اولاً: نسق الحرب:

وقف محمد الحمراني عبر مدوناته الروائية على جوانب مهمة من الأحداث السياسية التي شكلت منعطفاً تاريخياً وتحولاً جذريا في بنية المجتمع العراقي وما شهد من مأزق خطير جرّاء السياسات الاضطهادية الناتجة من الحروب وانعكاساتها تارة، ومن السلطة وممارساتها القمعية تارة اخرى، إذ شيدت روايته (النائم بجوار الباب) عالما خيالياً يوتوبياً اكتسب هويته الواقعية عبر شخصية (الحلاج)، فقد اتخذه الراوي صوتا يستعيد له عالمه ووجوده الحضاري والتاريخي، وصراعه الذي يعيشه مع ذاته؛ نتيجة المؤثرات الخارجية المليئة بالمخاطر والغرابة، ليتمكن عبره من سرد الاحداث وما يجول بخاطره من افكار ورؤى بطريقة رمزية تحمل كثيرا من القضايا الاجتماعية التي تعبر عن حقيقة الواقع بصدق وموضوعية، لكن الرواية في الوقت نفسه تحمل مدلولا سياسيا تمثل ببعض العبارات الانسانية الايحائية المؤثرة التي حاول بوساطتها الكاتب ان يموه عن البعد السياسي، فلجأ الى ذكر شخصيات واماكن ومدن رمزية، حتى يتمكن من التعبير بحرية مطلقة عن القضايا الاجتماعية التي اثقلت كاهل الفرد.

وقد أحدث التلاعب بعنصر الزمن مفارقة سردية ناتجة من عدم تطابق زمن السرد مع زمن القص الذي يحيلنا إلى أحداث وأبعاد فكرية يرغب الكاتب تضمنيها في الرواية من أجل إثبات التناوب والتشابه الزمني الذي يحدد مشاهد وأحداثا في أوقات مختلفة لعصرين شهدا نزاعات وفتناً تعبر عن توتر الواقع واضطرابه من جهة، وعن الجوانب الخفية لبعض الشخصيات واختلافها من الناحية الفكرية والايديولوجية من جهة أخرى؛ باعتبار أن الرواية من أكثر الفنون الأدبية قدرة على (التقاط الانغام المتباعدة والمتنافرة والمتغايرة الخواص لإيقاع عصرنا)[38]. لكن يبقى الواقع المعاصر محط اهتمام الكاتب حتى ان الماضي أو التاريخ الذي يوظفه، إنما هو مجرد اسقاطات عن واقعه ومشكلاته أو عن صور المستقبل المجهول الذي يستشرفه، وهذا عادة ما يوهم توقعات القارئ وينقله من المألوف لغير المألوف، ويمنحه أيضا فرصة التأويل والبحث عن الدلالة المضمرة ومدى واقعيتها، فالروائي نجح بكسر التسلسل التقليدي للزمن جاعلا دلالة الأحداث منفتحة من حيث ايحاءاتها على واقع جديد يجسد العلاقة بين الماضي والحاضر. فمن هذا الركام ومن بين هذه الانقاض يبرز لنا الراوي عبر رمز الحلاج صوت المجتمع الذي عانى ما عانى من مشاكل اجتماعية وممارسات تعسفية، حولت أحلامه إلى كوابيس مخيفة ليصبح الموت هاجسه الوحيد، ونجد حضور هذا النسق ماثلاً بقوله:(أبحث عن الطرق المظلمة وجوهر الاشارات فلم تُعد للشجرة غير الاغصان، العصافير احترقت اجنحتها وكرهت الفضاء، احتضنيني ايتها الأرض... أنا قادم اليك ايها القبر، بهذا الجسد الذي عذبته السنون وهذه العنيدة ما زالت مثل جلاد تنهك هذا المظلوم)[39].

يبدو أن الحمراني مسكون بهم الوطن والأمة، وجراحات واقعه اليومي المليء بصور الموت والحروب وما يشوبها من خيبات أمل واحباط وهزائم وتذمر من واقع شهد انكسارات عديدة جسدها الراوي ضمن انساق اجتماعية مشروطة بحركة وعيه وقدرته على تشكيل تلك الأنساق ضمن إطارها السياسي وبنيتها القائمة على العلاقة بين مضمون النص والواقع المعطى، فالحمراني عاش مع المقاتلين وخبر همومهم؛ لأنه كان قبل غيره يحمل الموت على راحتيه ثمناً لمصير مجهول (أنا المسكين الخارج من الموت أحمل أقدامي على عنقي فتتساقط الرمال، هذه الأقدام التي عادت خائفة مخذولة، تركتُ الأعتدة نائمة، تركت الثياب تمزقها أشعة الليزر. تركتُ الأصوات تخرج من الأعماق لتعلن بأن جهنم قادمة وهذا هو يوم

الفصل. ماذا تفعل الأقدام والطائرات تذرق في جيوبنا، تنتشل أفواهنا.. كأن الحياة ساعة سقطت منذ سنوات... الجسور سقطت الجسور أُغتصبت بكارتها والجنود مثلي وضعوا اقدامهم على اعناقهم وبدأوا يشتمون)[40]، ولعلنا نشير هنا الى ان هذا المبدع- الحمراني- كان من الكتّاب العراقيين الذين اسهموا بحق في تغطية مراحل الحرب التي عاش تفاصيلها، فقد صور الموت الذي يداهم اهله ورفاقه في اقسى تجلياته، إذ شكلت احداث الحرب وانعكاساتها المادية والمعنوية مساحة واسعة من نصوص التي تأثرت بصورة واضحة بالمناخ الاجتماعي والسياسي السائد في حقبة الثمانينيات التي جسدها عبر تجربته الشخصية في أفق أبداعي متفاعل مع الواقع وأحداثه ومشاكله السياسية، إذ يفصح صوت الراوي عن قلق نفسي وتوتر عاطفي ناتج من الحرب القمعية، وصورها القاسية، واهوالها المرعبة واجوائها التي تناثرت في ميادينها اشلاء الجندي العراقي، وهذا واضح في تمثيله النصي (كلما يقترب الليل تجتاحني أسئلة مجنونة، لا أهتم للكثير مما يقال حولي، تركت المدرعة وذهبت الى حقول الالغام المنتشرة حولنا، سقط في احضانها جنود كثيرون...هذا الفم أكل اولادا صغارا يبحثون عن الطريق المؤدي الى المطبخ أو السرايا المتقدمة، ولكنهم يخطئون ويمضون إلى أعماق حقول الالغام لا نسمع غير صراخهم ورائحة الشواء)[41].

وكأني بالروائي هنا يستشرف حالة الموت الذي يعم الجميع، مستخدما تكنيكا فنياً بطابع حكائي حقق بتواتره مرونة وتناميا لسرد الاحداث التي جسدتها الحرب العبثية، إذ تمتد رائحة الموت في (رواية النائم بجوار الباب) على امتداد نصوصها التي رسمت لنا صوراً فجائعية ومشاهد مأساوية تركتها آثار الحرب القمعية التي لم يجنِ منها الشعب غير الهول والرعب ورائحة الشواء الآدمي الناتج من حقول الألغام، ولا يختلف هذا الواقع المرعب الذي تمثل في أغلب نصوص الرواية التي كشفت عن رؤية كاتبها(شاهدتُ جنودا يسحبون أشياء متفحمة ويضعونها في أكياس نفايات، فلم أسمع إلا أزيز الرصاص، حاولت أن أمزق فمي، لأسمح لذاتي الأخرى أن تصرخ أشد مني... استمعت الى مواكب جنائزية وصراخ نسوة واطفال.. لا أريد أن اذهب الى الطرق المؤدية الى دهاليز الذاكرة، لا أريد أن أزاحم الموت على أعضائي المتفرقة على أجساد شرسة، لا احد يعرف من اين اتت، ومن اين جلبت هذه النار التي يسمونها المعارك... اقف بجوار رماد اصدقائي، لكنني الان لست رمادا)[42]، وبما أن الراوي الشخص الوحيد الذي يتحكم في سرد الأحداث داخل الخطاب السردي، فإنه يقدم في نصوص روايته وعيا فكرياً إيحائياً على المستويين: الاجتماعي والسياسي، عبر شخصية (الحلاج) التي جعلها شاهداً على واقعه المعاصر المحكوم بآلة الموت المخيم على مشاهده وتفاصيله، إذ نجح الراوي وبأسلوب إبداعي مبتكر جمع فيه صور الحرب الوحشية، وكوابيسها المخيفة التي طغت على ذلك الواقع في فترة زمنية شهدت عديدا من التحديات والمشاكل التي رافقت واقع الكاتب، وهذا ما جعله يتخذ مساراً يجمع ما بين فنتازيا الشخصية وفنتازيا الحدث من خلال توظيفه شخصية (الحلاج) التاريخية، بوصفها بؤرةً دلالية تشظي رتابة الخط الزمني لسرد الاحداث.

تُعدُّ دوامة الحرب وانعكاساتها السياسية في رواية (النائم بجوار الباب) الموضوع الجوهري والفاعل لقلم الروائي في نسج وبناء عمل فني إبداعي يتداخل فيه الواقع والخيال، وهذا التداخل يستطيع المتلقي أن يحدد مدلولاته عبر الرمز الضمني الذي يستخدمه الكاتب دون التصريح، على الرغم من أن موضوع الرواية تتكئ بشكل واضح على الواقع الحياتي، لكن الحمراني أراد عن طريق العلاقة الجدلية بين الواقع والخيال إبراز هوية النص، فضلا عن إظهار قدرته ومدى تحكمه بالصياغات والتقنيات الفنية التي تقوم عليها الرواية في بنائها وتشكيلها. بينما عكس في روايته (أنفي يطلق الفراشات) أحداثا سياسية واقعية ليست من صنع خيال الكاتب، وإنما كانت هذه الأحداث حاضرة في واقع العراق المزري الذي شهد عنفا سياسيا مرعبا ارتبط بأصوات القذائف التي تلتهب بنيران ألسنتها حقول الفلاحين البسطاء وتصور هروبهم الجماعي

من الحملات العسكرية التي يشنها النظام البائد بين حين وآخر على القرى والأرياف الجنوبية المحملة بأعباء الحياة وتساؤلاتها (ماذا أفعل من نار تسقط في معدتي كأنها اصطدام حديد ماذا أفعل ازاء هذه الحياة التي تشبه مراحيضا تبعث رائحتها الى اسرتنا والظلام يكشف أوراقاً كثيرة في طريقها للاحتراق من أجل ان ترعف دماً فاسداً توارثته الأجيال المحملة برائحة الآبار احشائي تنبض بالقصب المحترق من القذائف وذاكرتي تحتفظ بصور فلاحين يهربون وحقولهم تأكلها الأسلحة)[43]، يسرد لنا الروائي باستخدامه ضمير المتكلم (الأنا) قسوة الحرب وأعباءها وما يعانيه أبناء مجتمعه من ظلم وتعسف من نفوذ السلطة وممارساتها القمعية التي جعلت أبناء البلد تحت وطأة الحرب ورائحتها التي تشبه رائحة المراحيض، إذ ينخرط هذا النص في ذات الاتجاه الروائي العراقي من حيث الارتباط المباشر بتوثيق أحداث العراق وتحولاته السياسية والاجتماعية، لذلك كانت تفاصيل الحرب ووجه السلطة القاتم ومظلومية الشعب نسقاً ظاهراً وثيمة لا تكاد تخلو من أي جزءٍ من أجزاء رواية الحمراني، لأن (تميّز النص الروائي العراقي دون غيره من النصوص العربية بارتباطه المباشر بتاريخ العراق وحوادثه السياسية وتحولاته العنيفة)[44].

عانق محمد الحمراني ألم الواقع وقسوته، إذ بسط النسق الاجتماعي والسياسي جناحيه على جزء كبير من نصوص رواياته التي أراد إيصالها للمتلقي بطريقة حداثوية ذات طابع ايحائي غير معقد اظهر فيه ظروف البلد القاسية وممارسات السلطة وحيفها من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ثانياً: نسق الإقطاع

لم تكن الأحداث التي مرّ بها العراق ناتجة من الأحداث السياسية وصراعاتها فحسب، بل جاءت ايضا من طبيعة المجتمع وصراعاته التي أفرزتها الفوارق الطبقية، وبخاصة في المجتمعات الريفية التي تفاقم فيها الحكم الاقطاعي في العهد الملكي، إذ سبب مشاكل اجتماعية واقتصادية على طبقات المجتمع المهمشة من الفقراء والفلاحين. حيث تجلّت في أعمال الحمراني مظاهر النظام الاقطاعي، وقضية الأرض والفلاح ومصادر الحياة بكل أبعادها الاجتماعية، وجعلتها موضوعاً حيوياً يشكل فيه الريف اتجاها واقعيا يتحدد بمسارات اجتماعية في ظل نظام اقطاعي جشع فرض هيمنته بقوة على الطبقة الفلاحية الكادحة، لذا جاءت رواياته معبرة (عن الحياة بتفصيلاتها وجزئياتها وشبكة علاقاتها، وهي تجربة انسانية يصور فيها الروائي الجوانب الانسانية والنفسية في بيئة ما خلال حقبة زمنية ويطرحها بشكل مقنع ومبرر من خلال حركة الشخوص وصراعاتهم)[45].

وقد ركز الحمراني في روايته (حجاب العروس) على عالم الريف وملامحه الاجتماعية بحرفية عالية، إذ اشتغل فيه على تعرية النظام الاقطاعي عبر شخصياتها الثانوية، وكشف فيها بصدق عن النظرة الدونية والمتخلفة التي تمارسها شخصيات عُرفت بطغيانها وتسلطها في التعاطي مع الفلاحين واستغلال حقوقهم بطرق غير مشروعة، ولعل ذلك يعود الى التكوين الثقافي للروائي المنحدر من البيئة الريفية التي سمحت له بعرض صور الاقطاع بأسلوب فني ونمط مغاير، جسد فيه شخصية الإقطاعي عبود الذي كان يتعامل مع الناس بجشع ويستحوذ على أموالهم بحجة الضرائب الحكومية، وهذا ما أظهره تمثيل الحمراني النصي (في احد الأيام أتى جباة الضرائب مع رجال الاقطاعي عبود ومعهم بعض العاملين لدى العثمانيين، جابوا انحاء متفرقة من القرى، واخذوا ضرائب على الإنسان والحيوان والارض، وحين وصلوا إلى قرية الهدام خاضوا معركة لسانية مع أول رجل طلبوا منه أن يدفع الجباية، ولكنه رفض.. وهذا ما جعل رجال الاقطاعي عبود يطلقون عيارات نارية لتخويف كاطع الفلاح)[46]، يشكل عبود الاقطاعي في هذا النص نسقاً سلطوياً فرض هيمنته بقوة السلطة التي اتكئ عليها، حيث جعلته يستحوذ على حقوق الناس ويمارس معهم أبشع أنواع الجشع، إذ يبرز الراوي عبر

نسق الاقطاع اتجاهين بارزين الأول: تمثل بصور الظلم والاستبداد ودور الاقطاع التعسفي الذي يسعى الى استغلال جهود الفلاحين في قرية (الهدام) واخضاعهم لدفع الضرائب تحت سطوة العنف والإذلال، بينما تمثل الثاني: بتلاشي الآخر والاستحواذ على مكاسبه بفعل قانون القوة الاستبدادي، فالملاحظ أن الروائي أراد أن ينفد الى إعماق الواقع الاجتماعي، ليصور بصدق فني الاساليب التي يمارسها الاقطاعيون بحق الفلاحين البسطاء وآثارها السلبية على حركة المجتمع وسلوكه، وهذا ما تجلى ايضاً في تمثيل نصي آخر لنفس الشخصية الاقطاعية (قام هو وبعض اصدقائه بأخذ الأتاوات من الفلاحين الفقراء ومن الذين تصادفهم جماعته في الاهوار أواخر الليل. كانت قرى الارياف تخافه، روى العديد من سكان القرى حكايات غريبة عن جرائم عبود، فمنهم من قال إنه يقتل من يعارضه الرأي ويرميه في الماء لتأكله الاسماك... فالفلاح الذي يتصرف بطريقة لا تليق لعبود يطرد من القرية، واذا عطف عليه يأخذ أرضه فقط)[47].

لقد حرص الحمراني بوصفه راوياً عليماً على سرد الأحداث وتقديم الشخصيات، واظهار ملامحها وبيان مواقفها بموضوعية عبر رؤيته وما تنماز به من نقد لاذع لتلك الممارسات التعسفية اللاإنسانية التي فرضت سيطرتها على المجتمعات الريفية التي ترزح تحت سيطرة الاقطاع، إذ يكشف الراوي عن طريق شخصية (رمضان) حقيقة بعض رجال الدين الذي يحملون عِقداً اجتماعية تبان من تصرفاتهم وافعالهم ذات الفكر الايديولوجي النفعي الذي يسعى دائما الى ابتزاز الاخرين عنوة من اجل الحصول على مكاسبه الدنيوية بأساليب استفزازية، وهذا ما اظهره الروائي بقوله:(رجال رمضان اهانوا اغلب ملاكي الأراضي واخذوا اراضيهم رغما عنهم واجبروا من عصى على دفع الضرائب وبدأ السكان يتداولون قصصا عن ظلم الشيخ رمضان، لقد رمى جاسم الاخرس في النهر في فصل الشتاء... ثم ترددت حكاية خزعل الميسور الذي رفض ان يعطي ارضه فربطه رمضان الى ثور كبير سحله في قرية الهدام)[48].

يبرز الراوي عبر شخصية (رمضان) الانتهازية مظاهر النفاق الاجتماعي، وانعدام الصدق مع الذات، فضلا عن تسلطها وتمردها على نسقها المعروف (الديني)، إذ ارتبطت شخصيته بسياسة ثيوقراطية تحاول الاستيلاء على حقوق ابناء جلدته جهراً عن طريق الممارسات التعسفية والاستحواذ على اراضيهم وعائداتهم ومنافعهم الشخصية، وهذه احد الاسباب التي أدت الى هجرة الفلاح من الريف الى المدينة حفاظاً على نفسه من تسلط الاقطاعين ومنتفعيهم (إذ هرب احد الفلاحين من قرية الكفاخ من دون ان يصله رجال الشيوخ والسراكيل ويقتلوه سيصل بعد يومين الى سوق الطويل مشياً على الاقدام، خشية مشاهدته من قبل بعض المنافقين، الذين ربما يسرعون في بث نبأ هروبه فيلحق به السراكيل ورجالهم ويضربونه)[49]، يمثل التسلط على الاخرين شكلا من اشكال التعذيب النفسي المقيت الذي فرضه بعض الشيوخ واتباعهم على الفلاحين البسطاء من اجل الاستحواذ على مقدراتهم بالإكراه والتمرد، و قد اعطى هذا النسق لرواية (حجاب العروس) قيمة فنية كبيرة حيث تميزها بدقة تصويرها وانتقاءها الاحداث الواقعية الهامة، وتسجيلها لتفاصيل الحياة اليومية، وتراجع شخصياتها لصالح بيئتها، هذا ما اكده الروائي الكبير فؤاد التكرلي بأنها رواية (ذات الصوت المتميز، تتراجع فيها الشخصيات لصالح بيئتها بشكل لافت للنظر... تبرز هذه البيئة لتكون هي الشخصية المحورية لتهيمن بعد ذلك على اجواء الرواية وافقها كله)[50]؛ لأن الروائي عمد فيها الى اظهار الاطر الاجتماعية بعاداتها وتقاليدها السائدة وهروب الانسان فيها من الظروف القاسية والصراع المحتدم مع السلطة من جهة، ومع طبقات المجتمع المختلفة من جهة اخرى، باحثا فيها عن حياة أمنة تنقذه من ذلك البرزخ المخيف وحالة اليأس والمعاناة والحرمان الملقاة على كاهل مجتمعه الريفي، وما يتعرض له من قسوة وتسلط وتهميش وسلب لأبسط حقوقه المشروعة.

ثالثاً: الطائفية:

وثمة أنساق اخرى سيطرت في بيئة المجتمع العراقي بعد 2003م، منها نسق الطائفية الذي أخذ يتفاقم بعد أن وجد من يُغذيه من جهات وتيارات مختلفة متطرفة عقائديا، إذ نجدهم دائما ما يعزفون على أوتار المقدس الديني، ليضفوا على افعالهم مشروعية الدفاع عن مبادئهم وقيمهم البعيدة كل البعد عن الافعال الانسانية، فالطائفية من الانساق الاجتماعية الخطيرة التي جسدت مظاهر العنف في عصرنا الحديث؛ نتيجة الافرازات السياسية والدينية الخاطئة، التي اشاعت لغة الموت عبر خطابها الكاشف عن زيف مدعيه الذين يحاولون تمزيق بنية المجتمع العراقي وروابطه، وتهديد وحدته وتأجيج روح العداوة والصراع بين مختلف مكوناته، وقد تركز ذلك في مدينة بغداد ذات المجتمع المتداخل بالأعراف والديانات والقوميات، التي غاب عنها القانون في ذلك الوقت، وانتشر فيها السلاح المنفلت، فظهرت نزعات اقصائية اشاعت حالة من الرعب والخوف والذعر بين ابنائها، إذ مثل الحمراني في اعماله موقفا رؤيويا مبنياً على انساق المجتمع وتجلياتها المستمدة من الواقع وتكوينه الثقافي؛ لأن الأدب بصورة عامة (يقدم وجهة نظر حول واقع الانسان ووسطه وحول الكيفية التي يدرك بها الانسان هذا الوسط والروابط التي يقيمها معه) [51].

وعلى هذا الاساس انعكست أنساق كثيرة ومختلفة في منجز الحمراني الروائي، لا سيما في روايته (حجاب العروس) التي صوّرت العنف الطائفي وخطابه الذي علا فيه صوت الموت والتهجير القصري واستلاب الحقوق وانتزاعها بقوة السلاح، محاولا الكشف عن الطائفية والطائفيين وعن واقع هؤلاء الجماعات، ووعيهم الذي يحمل نزعة عدائية اقصائية، وهذا ما جاء في التمثيل النصي للرواية (المعارك انتشرت في شوارع الدورة، بين الشيعة الذين يسكنون في جانب ابو دشير، والسنة من منطقة الطعمة، ونظم الطرفان مليشيات، ووزعت اسلحة بين الصبيان، وبين حين واخر تغير المليشيات على بعضها، الكثير من الكلدان والاشوريين تركوا الحي، وذهبوا الى كردستان بعد ان شنت عليهم المليشيات من الطرفين هجومات ليلية تطالبهم بالدخول في الاسلام أو قتلهم واخذ منازلهم)[52]. صور الروائي دوامة الصراع الطائفي الذي فكك نسيج المجتمع بعد 2003م، إذ تحوّل الإنسان الذي تغذى فيه على ثقافة هذه النزعة الى عنصر هدم وتخريب من اجل مصلحة ضيقة تحت شعار حقوق الطائفة والمقدس، فقد أثرت الطائفية سلباً على أواصر المجتمع العراقي وبنيته، وزعزعت حالة التعايش السلمي، مما ولد اقصاء الاخر وتهميشه، واشاعة الكراهية والحقد، واباحة الدماء، واصبحت الهجرة فيه من مدينة لأخرى على اساس الانتماء الطائفي والقومي بعد تسلط الجماعات الطائفية وعبثهم بأرواح الناس وتخويفهم، خاصة سكان الاقليات الذي اضطر بعضهم الهجرة الى مناطق أكثر أمنا من مناطقهم حفاظا على حياتهم التي ارعبها هؤلاء المرتزقة الذين فرضوا سطوتهم على الآخرين بحجج واهية، وهذا ما نلاحظه بقوله:(بعض الفتيات المسيحيات يرغمن على ارتداء الحجاب حين يخرجن الى الاسواق، وقُتلت اكثر من فتاة مسيحية بحجة انها غير محتشمة، المليشيات السنية طردت كل الشيعة خارج حدودها، والمليشيات الشيعية طردت السنة ايضا وحوسمت بيوت المهجرين وما فيها لتصبح أوكارا للمليشيات والمتنفذين فيها) [53].

إن استلاب الحرية وانعدام الأمن الاجتماعي، وشيوع الفوضى، والاضطرابات السياسية، من الاسباب التي أسهمت في زرع روح الانتقام والحقد وردود الافعال العنيفة المنتهجة من بعض المحسوبين على الاسلام، إذ تنم المشاهد الطائفية عن السلوك الهمجي وتناقضات الواقع وصراعاته المذهبية التي تتخفى وراء النسق الديني، لكن الروائي بمهارته الفنية الفذة استطاع ان يعكس صور الطائفية واحداثها الدموية المفزعة بخطابه السردي، لتكون شاخصة وشاهدة للأجيال، بعدما اخذت الطائفية تشتعل وتلتهم بنيرانها بعض احياء بغداد اثناء دخول الاحتلال الامريكي للعراق، وما سببه من فوضى وانفلات امني، وهذا ما جعل الحمراني يوظف نسق الطائفية توظيفاً بنائيا، ليعطي شكلا واهمية للمشاهد المفجعة في مدينة بغداد،

وما احلى بها (تشجيع المليشيات على حروب في شوارع بغداد والقتل على الهوية، يوميا تعثر الشرطة على (500) جثة مجهولة الهوية في المزابل والشوارع البغدادية، خطف النساء والاطفال، تهديد لضوابط المحاكم والمدارس والمساجد)[54]، اتخذ الروائي نسق الطائفية ثيمة توثيقية في بناء روايته (حجاب العروس)، متخذا من مدينة بغداد واحياءها البؤرة المركزية لأحداث ذلك الصراع الطائفي الذي نتج منه الخراب والموت والتهجير وفقدان الأمل في العيش في بلد كان الحضن الأمن لجميع مكوناته، إذ أضفى المكان الواقعي صفة موضوعية على احداث السرد وتناميها داخل الخطاب السردي الذي جسد ازمات المجتمع العراقي في مدينة بغداد.

اقتصر نسق الطائفية في نصوص رواية الحمراني على منظور الأحداث الواقعية بتفاصيلها الدقيقة التي ارتسمت فيها مشاهد الخطف والتفجيرات العشوائية، وانتشار جثث الموتى، وسيطرت الجماعات المسلحة على اغلب احياء بغداد، إذ اخذت هذه الجماعات تعبث بأرواح الابرياء وتقتلهم من غير مبالاة، وهذا يبدو جليا في نص الرواية (صديقي مطرب شعبي قُتل من قبل المليشيات، لأنه كان يغني في الأعراس والمناسبات العائلية، وآخر مترجم عثرنا على جثته قرب النفايات ولكن بلا رأس، قتل لأنه ذهب في بعثة الى امريكا، فاعتقد القتلة انه جاسوس لأمريكا... اصدقائي هاجروا الى الاردن وسوريا ومنافٍ أخرى)[55]، عكست الرواية في خطابها السردي الاخباري وعبر صورها التوثيقية حجم المعاناة والرعب والخوف الذي يكابده المجتمع البغدادي جرّاء النفس الطائفي الناتج من وباء العنصرية وسعيها الدائم للقتل والتهجير القصري الذي ادخل هذه المدينة الامنة بنفق الارهاب الوحشي، واصبحت مكانا يشع برائحة العنف والموت، وهذا ما نلمحه في النص(اخوتي الصغار توسلوني ان ابقى معهم وقال لي احدهم: أين انت ذاهب، لقد أصبحت بغداد مقبرة، ونحن نخاف عليك ان تموت)[56] ، يبدو ان شبح الطائفية كان شبحا مخيفا لسكان مدينة بغداد التي شهدت واقعا سوداويا مرعبا مليئا بالتوتر والاحتقان الطائفي والغضب المكتوم؛ بسبب المشاكل السياسية والاجتماعية والدينية، وما تحدثه من هزات عنف متتالية، إذ استدعى الحمراني في هذا النسق ذاته ليتأمل عبرها الواقع المرير الذي جسد سيرته الشخصية خلال الفترة التي قضاها في تلك المدينة، مبينا للمتلقي حقائق واحداث واقعية شهدتها بغداد ابان سقوط نظام صدام، فقد وظف الروائي تيار الوعي توظيفا اسلوبيا بقالب فني مميز أظهر فيه الحياة الواقعية التي فقدت رونقها نتيجة الأحداث الطائفية وما رافقها من معاناة وملابسات لواقع وجد نفسه في أحضان عالم تسوده الصراعات والتناقضات.

وعلى هذا الصعيد يمكن القول إن الأنساق التي قمنا برصدها في روايات محمد الحمراني شكلت عاملاً مهماً في صقل موهبته الأدبية، إذ زخرت تلك الأنساق بدلالات محكومة بظروف اجتماعية وسياسية وثقافية واقتصادية كشفت النقاب عن بعض الشخصيات واثرها في مجتمعه الذي شهد انكسارات عديدة واختلاف واضح بين طبقاته، فقد عاين الحمراني عبر تجربته الانسانية ونتاجه الابداعي المنتمي الى التيار الواقعي احداث مجتمعه بصدق وحيوية، وهذا ما حقق له أثرا وخصوصية بين مجايليه من الروائيين العراقيين.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة البحثية التي طفنا من خلالها في روايات محمد الحمراني الرباعية كشفنا عن مدلولات وأنساق اجتماعية مختلفة، جاءت نتائجها بالشكل الاتي:

اولاً: لم يكن النص الروائي عند محمد الحمراني بمعزل عن البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها، إذ ربط اغلب نصوص رواياته بعالمه الخارجي وتجاربه الحياتية الحقيقية، وجعلها الخلفية البنائية لأعماله التي عكست تفاعلات الواقع وازماته وصراعاته الايديولوجية، وما تمخض عنها من ظروفه ارتبطت بالراهن العراقي في فترة زمنية محددة.

ثانياً: لم يُظهر الحمراني في خطابه السردي الوعي الجمالي لمدينته الريفية، ومناطقها الشعبية التي دائما ما يحرص على تسميتها بأسمائها الواقعية، بوصفها حاضنة لفعل اجتماعي ناتج من ظروف قاهرة، لكن خطابه السردي كشف عن العلاقة بين الغرائبي والحقيقي، واظهارهما بشكل واضح ضمن الانساق الاجتماعي السائدة في المجتمع.

ثالثاً: كشف الروائي في منجزه الروائي عن بعض العادات والمعتقدات الشعبية وحكاياتها، وعن واقع مأساوي مليء بالتناقضات والمفارقات التي تجسد واقع الكاتب بدقة متناهية.

رابعاً: اقتربت لغة السرد في اعمال محمد الحمراني الروائية من لغة الشعر، إذ جعل لغة رواياته تقترب كثيرا من قصيدة النثر وشعريتها.

خامساً: بنى الحمراني اعماله الروائية على العلاقة التواشجية بين الشكل والمضمون، وهذا ما اعطى لها سمة واقعية استنطق عبر لغتها التصويرية الحسية لا التجريدية الاحداث ومساراتها الزمكانية المعبرة عن الحياة اليومية، التي تتماهى مع كل حدث له صلة بتجربته الذاتية وما يرتبط بها من قضايا اجتماعية وسياسية شهدها واقعه المعاش.

سادساً: يهيمن على مجرى اعمال الحمراني الروائية واحداثها خطاب السارد العليم الذي دائما ما يُغلب ايديولوجيته على ايديولوجية الشخصيات داخل خطابه السردي، إذ جعل من بعض الاحداث التاريخية محطة انطلاق نحو القضايا المحلية التي تظهر صراعه مع الذات قبل الاخر.

سابعا: ارتكزت روايات الحمراني ما عدا رواية (النائم بجوار الباب) من حيث المكان الجغرافي على مكان واحد تدور في فلكه الاحداث الحقيقية التي تجسد سيرته الشخصية من جهة وطبيعة مجتمعه وواقعه من جهة اخرى.

ثامناً: تعمل المشاهد التلخيصية الكثيرة في روايات الحمراني الرباعية على تحفيز فاعلية السرد وحركته التي تتناسب مع طبيعة الحدث الذي يصور الواقع بعلاقاته الاجتماعية المتشابكة بأسلوب وصفي، وبالغة ادبية رفيعة ومشوقة.

تاسعا: ركزت روايات محمد الحمراني الرباعية على نسق وثيمة مركزية واحدة عُدت البؤرة المركزية لانطلاق الاحداث داخل الرواية، لكن الروائي اتبع نمطا غير معقد في ربط نسق بنسق اخرى دون ان يحدث ذلك الربط ارباكاً على مضمون الرواية وتشكيلها.

الهوامش

([1])- المدخل الى مناهج النقد المعاصر، بسام قطوس:65.

([2])- ينظر: الابداع ومصادر الثقافة عند ادونيس، قاسم عدنان حسن:27.

([3])- ينظر: ضد هدم التاريخ وموت الكتابة، احمد عزت سليم:148.

([4])- ينظر: ملامح النظرية الاجتماعية في التراث العربي" الجاحظ نموذجا"، د. موج عراك عليوي الزغيبي:17.

([5])- ينظر: المصدر نفسه:16-17.

([6])- الزمن في الرواية العربية، مها حسن القصراوي:38.

([7])- المواقف النقدية قراءة في نقد القصة القصيرة في العراق، د. كريم الوائلي: 138.

([8])- ينظر: البنية السردية في روايات محمد الحمراني، محمد نوام جبار:11-12.

([9])- ينظر: لسان العرب، للعلامة ابن منظور، مج5: 235 .

([10])- ينظر: الانسان المتمرد، البير كامو، ترجمة: نهاد رضا: 234 .

([11])- الاغتراب التمرد قلق المستقبل، د. اقبال محمد رشيد الحمداني: 15.

([12])- انفي يطلق الفراشات، محمد الحمراني: 8-9.

([13])- المصدر نفسه: 10.

([14])- المصدر نفسه:9.

([15])- المصدر نفسه:9.

([16])- ينظر: نشأة القصة وتطورها في العراق 1908م- 1939م، د. عبد الاله احمد: 123.

([17])- الرواية المغاربية تشكيل النص الروائي في ضوء البعد الايديولوجي، ابراهيم عباس:298.

([18])- فن القص في النظرية والتطبيق، نبيلة ابراهيم:181.

([19])- حجاب العروس، محمد الحمراني:98.

([20])- خطاب الانساق الشعر العربي في مطلع الالفية الثالثة، آمنة بلعلي: 185.

([21])- الرؤية والاداة(نجيب محفوظ)، د.عبد المحسن طه بدر:29.

([22])- انفي يطلق الفراشات، محمد الحمراني:17.

([23])- بناء الرواية " دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ"، د. سيزا قاسم: 45.

([24])- انفي يطلق الفراشات، محمد الحمراني:10.

([25])- افاق الرواية (البنية والمؤثرات)، محمد شاهين:7.

([26])- الهروب الى اليابسة، محمد الحمراني:27.

([27])- الرواية المغاربية: تشكيل النص الروائي في ضوء البعد الايديولوجي، ابراهيم عباس:222.

([28])- ينظر: انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين: 142.

([29])- حجاب العروس، محمد الحمراني:9.

([30])- اشكالية التعبير في الأدب الشعبي، نبيلة ابراهيم:13.

([31])- انفي يطلق الفراشات، محمد الحمراني:29.

([32])- المصدر نفسه:29-30.

([33])- الادب وفنونه، د. عز الدين اسماعيل: 43.

([34])- حجاب العروس، محمد الحمراني:85.

([35])- صورة المرأة في الرواية الجزائرية، صالح مفقودة:191.

(36)- حجاب العروس، محمد الحمراني:94.

(37)- الرواية السياسية: دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، أحمد محمد عطية:17.

(38)- زمن الرواية، جابر عصفور:35.

(39)- النائم بجوار الباب، محمد الحمراني:43.

(40)- انفي يطلق الفراشات، محمد الحمراني :21.

(41)- النائم بجوار الباب، محمد الحمراني :50-51.

(42)- المصدر نفسه :52-53.

(43)- انفي يطلق الفراشات، محمد الحمراني:13.

(44)- الرواية العراقية: رصد الخراب العراقي في ازمات الدكتاتورية والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف، سلام ابراهيم:491.

(45)- النقد الأدبي الحديث: محمد غنيمي هلال:491.

(46)- حجاب العروس، محمد الحمراني:59-60.

(47)- المصدر نفسه:61-62.

(48)- المصدر نفسه:79.

(49)- الهروب الى اليابسة:128.

(50)- رواية الاهوار، جريدة الصباح، ع 1014، الخميس 29 تشرين الثاني 2007م:9.

(51)- ينظر: التحليل النفسي والادب، جان بيلمان والادب:29.

(52)- حجاب العروس، محمد الحمراني:92.

(53)- المصدر نفسه:92.

(54)- المصدر نفسه:94.

(55)- المصدر نفسه:95.

(56)- المصدر نفسه:94.

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

1. افاق الرواية (البنية والمؤثرات)، محمد شاهين، اتحاد الكتاب العرب- دمشق، ط1، 2000م.
2. الرواية المغاربية تشكيل النص الروائي في ضوء البعد الايديولوجي، ابراهيم عباس، دار الرائد للكتاب- الجزائر، ط1، 2005م.
3. الرؤية والاداة(نجيب محفوظ)، د.عبد المحسن طه بدر، دار الثقافة والتنوير- القاهرة، د. ط، 1978م.
4. انفي يطلق الفراشات، محمد الحمراني، دار الواح- مدريد اسبانيا،ط1، 1999م.
5. المدخل الى مناهج النقد المعاصر، بسام قطوس، دار الرفا لدنيا للطباعة والنشر- الاسكندرية،، ط1، 2006م.
6. فن القص في النظرية والتطبيق، نبيلة ابراهيم، مكتبة غريب- القاهرة، د. ط، 1980م.
7. حجاب العروس، محمد الحمراني، دار المدى- سورية دمشق، ط1، 2008م.
8. الرواية المغاربية: تشكيل النص الروائي في ضوء البعد الايديولوجي، ابراهيم عباس، دار الرائد للكتاب- الجزائر،ط1، 2005م.
9. الابداع ومصادر الثقافة عند ادونيس، قاسم عدنان حسن، الدار العربية للنشر- القاهرة- مصر، ط1، 2000م.
10. ضد هدم التاريخ وموت الكتابة، احمد عزت سليم، مركز الحضارة العربية- القاهرة، ط1، 1997م.
11. ملامح النظرية الاجتماعية في التراث العربي" الجاحظ نموذجا"، د. موج عراك عليوي الزغيبي، دار ومكتبة البصائر للطباعة والنشر - بيروت، ط1، 2013م.
12. الزمن في الرواية العربية، مها حسن القصراوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط1، 2004م.
13. البنية السردية في روايات محمد الحمراني، محمد نوام جبار، رسالة ماجستير- جامعة ميسان، 2022م.
14. لسان العرب، للعلامة ابن منظور، مج5، " ر- ز"، نشر أدب الحوزة، قم- ايران، محرم 1405.
15. الانسان المتمرد، البير كامو، ترجمة: نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت- لبنان، ط1، 1963م.

16. الاغتراب التمرد قلق المستقبل، د. اقبال محمد رشيد الحمداني، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان- الاردن، 2011م .
17. الادب وفنونه، د. عز الدين اسماعيل، دار الفكر العربي- القاهرة، ط1، 1978م.
18. اشكالية التعبير في الأدب الشعبي، نبيلة ابراهيم، مكتبة غريب- القاهرة، ط3، 1981م.
19. انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء- المغرب، ط2، 2001م.
20. التحليل النفسي والادب، جان بيلمان والادب، ترجمة وتحقيق حسن المودن، المجلس الاعلى للثقافة، ط1، 197م.
21. خطاب الانساق الشعر العربي في مطلع الالفية الثالثة، آمنة بلعلي، مؤسسة الانتشار العربي- بيروت، ط1، 2014م.
22. رواية الاهوار، جريدة الصباح، ع 1014، الخميس 29 تشرين الثاني 2007م.
23. الرواية السياسية: دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، أحمد محمد عطية، مكتبة مدبولي- القاهرة، ط1، د.ت.
24. الرواية العراقية: رصد الخراب العراقي في ازمات الدكتاتورية والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف، سلام ابراهيم، المركز العربي للأبحاث- الدوحة، د. ط ، 2012م:1. النقد الأدبي الحديث: محمد غنيمي هلال، نهضة مصر- القاهرة، ط1 ، 1997م.
25. زمن الرواية، جابر عصفور، دار المدى- دمشق، ط1، 1999م.
26. صورة المرأة في الرواية الجزائرية، صالح مفقودة، شركة الهدى للطباعة والنشر- الجزائر، ط1، 2003م.
27. المواقف النقدية قراءة في نقد القصة القصيرة في العراق، د. كريم الوائلي، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد،ط1، 2006م.
28. النائم بجوار الباب، محمد الحمراني، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ط1، 2007م.
29. نشأة القصة وتطورها في العراق 1908م- 1939م، د. عبد الاله احمد، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ط1، 2006م.
30. النقد الأدبي الحديث: محمد غنيمي هلال، نهضة مصر- القاهرة، ط1 ، 1997م.